مصير درعا

في ظل الضغوطات الروسية وتصعيد النظام السوري

إعداد : فراس فحام

تقدير موقف

تموز / يوليو 2021

جسور للدراسات
JUSOOR FOR STUDIES

جسور للدراسات
JUSOOR for STUDIES

مؤسسة مستقلة متخصصة في إدارة المعلومات وإعداد الدراسات والأبحاث المتعلّقة بالشأن السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني في منطقة الشرق الأوسط والشأن السوري بشكل خاص، لمد جسور نحو المسؤولين وصناع القرار في كافة تخصّصات الدولة وقطاعات التنمية لمساعدتهم في اتخاذ القرارات المتوازنة المتعلّقة بقضايا المنطقة من خلال تزويدهم بالمعطيات والتقارير المهنيّة الواقعية الدقيقة.

جميع حقوق الطبع والنشر والنسخ محفوظة لمركز جسور للدراسات – 2021
www.jusoor.co

تمهيد

منذ توقيع اتفاق التسوية بين فصائل الجبهة الجنوبية التابعة للمعارضة السورية المسلحة، وبين روسيا صيف عام 2018؛ لم يتمكن النظام السوري من فرض سيطرته بشكل فعليّ وحقيقيّ على محافظة درعا، إذ إن المقاتلين المناهضين للنظام السوري استغلوا بعض الهوامش التي يُتيحها الاتفاق ومنها الاحتفاظ بالأسلحة الخفيفة، والظروف الدولية التي رافقته، وحافظوا على مناطق نفوذ فعلية أبرزها في حي "درعا البلد" والمناطق المحيطة به، وبعض البلدات والقرى في الريف الغربي. في حين فضلت بعض الفصائل الانضواء بشكل مباشر ضِمن الفيلق الخامس التابع لروسيا مقابل الاحتفاظ بالسيطرة الفعلية على مناطقها على غرار نموذج قوات "شباب السنة" التي يقودها "أحمد عودة"، والمنتشرة في منطقة "بصرى الشام" إلى يومنا هذا.

أعطى هذا الواقع أرضية خصبة للحرس الثوري الإيراني للتحرك وتشكيل ميليشيات تابعة له، لكن بقي نموذج الجنوب مؤرّقًا بالنسبة للنظام السوري، على اعتبار أن مجموعات المقاتلين المحليين، التي لا تزال تحتفظ بسلاحها حالت دون الهيمنة الأمنية للنظام السوري، ومنعت نشاط الأفرع الأمنية والاستخبارات في مناطق عديدة، وأفسحت المجال لقيام نشاطات شعبية وسياسية مُناهِضة للنظام السوري، تجسدت بالمظاهرات والإضرابات.

وبشكل محدَّد أكثر يمكن القول بأن أحياء درعا وخاصة "درعا البلد" مثَّلت العائق الأساسي في وجه هيمنة النظام السوري على الجنوب بشكل كامل وبسط سلطته الأمنية والإدارية، لذلك سعى بشكل مستمر لإحداث تغيير على الأرض ضِمن الهامش المتروك له للتحرك من قِبل روسيا، لكن موسكو تدخلت بشكل متكرر وأجرت وساطات بين سكان درعا والنظام السوري، وحالت دون تطبيق الحسم العسكري.

مؤخرًا يبدو أن الواقع في جنوبي سورية لم يعد مُرضِيًا بالنسبة لروسيا ذاتها، والتي بدت أنها داعمة لتحركات النظام الأخيرة من استقدام تعزيزات وحصار الأحياء السكنية، بل فاوضت روسيا اللجنة المركزية في درعا على قضية تسليم الأسلحة الفردية، وهو بند لم يكن منصوصًا عليه في تسوية عام 2018، وكل هذا أعطى مؤشرًا على رغبة روسية بإحداث تغيير حقيقي في هذا الملف.

أولاً: حصار درعا

في الرابع والعشرين من شهر حزيران/ يونيو 2021 بدأت قوات النظام السوري بتطويق كل من "درعا البلد" و"طريق السد" و"مخيم درعا"، وقامت بفصلها عن حي "درعا المحطة"، وقامت بإغلاق المعبر الذي يربط تلك الأحياء بمحيطها، كما فصلتها عن المزارع المجاورة.

التحركات الميدانية لقوات النظام السوري أتت بعد يوم واحد فقط من جولة مفاوضات عقدها وفد روسي مع اللجنة المفاوضة باسم مدينة درعا، حيث طالب الوفد الروسي بتسليم الأسلحة الخفيفة التي يمتلكها مقاتلو فصائل المعارضة السابقون، كما اشترط الوفد السماح له بإجراء عمليات تفتيش في أحياء المدينة[1].

واستخدم النظام السوري الملف الإنساني للضغط على العناصر المحلية المسلحة من أجل الموافقة على مطالبه، إذ إنه قيد دخول وخروج الغذاء إلى الأحياء المحاصَرة، كما وضع ضوابط شديدة على خروج أصحاب الأمراض المزمنة باتجاه المشافي.

ويمكن تحديد أسباب أساسية دفعت روسيا لدعم فكرة حصار أحياء درعا التي تخضع فعليًا لسيطرة مقاتلي المعارضة السورية السابقين:

1-تصاعُد وتيرة العمليات الأمنية ضد النظام السوري ووكلاء إيران: منذ مطلع عام 2021 يمكن ملاحظة ازدياد العمليات الأمنية ضد عناصر النظام السوري ووكلاء إيران في الجنوب السوري، بالإضافة إلى ارتفاع الهجمات المباشرة ضد النقاط التابعة للنظام السوري في مختلف أنحاء محافظة درعا[2].

واللافت أن العديد من الهجمات التي حصلت خلال الأشهر الماضية ضد مواقع للنظام السوري، أتت كرد على تحرُّكات النظام أو استهدافه للمقاتلين السابقين في فصائل المعارضة، بما يعطي مؤشرًا على تنامي حالة العصيان المسلح في درعا[3].

2-عودة الشعارات السياسية إلى الشارع في درعا: عادت الشعارات السياسية إلى الشارع في محافظة درعا من خلال تجدُّد المظاهرات المُطالِبة بإسقاط النظام السوري، والتي تركزت بشكل كبير في منطقة "درعا البلد".

---

(1) السلاح الخفيف في درعا: مصدر قلق للنظام وروسيا أم ذريعة للتصعيد، شبكة "نبأ" المعنية بتغطية أخبار محافظة درعا. 23 حزيران/ يونيو 2021. https://bit.ly/3xa0A1z

(2) نهاية متوقعة لقيادي في حزب الله بدرعا، "تجمع أحرار حوران"، 26 حزيران/ يونيو 2021، https://bit.ly/3BF4fbf.

(3) استهداف مواقع للنظام السوري غرب درعا بعد محاولة اغتيال قيادي سابق في صفوف المعارضة، "نداء بوست"، 2021/7/16، https://bit.ly/3eWoqYE .

ذروة الاحتجاجات الشعبية والرفض لممارسات النظام السياسية كانت في أواخر شهر أيار/ مايو 2021، وذلك عن طريق التظاهُرات المنددِّة بإجراء النظام السوري بدعم روسي للانتخابات الرئاسية، وقد تخلل تلك المظاهرات إضرابات عامة، ومنع بالقوة لفتح مراكز اقتراع في العديد من البلدات والمدن، الأمر الذي شكَّل إحراجًا سياسيًّا لموسكو، خاصة مع تسليط وسائل الإعلام الضوء على حالة الرفض الشعبي للعملية الانتخابية واعتبارها غير شرعية[4].

ويبدو أن روسيا لم تعد مرتاحة للنموذج السائد في الجنوب السوري، خاصة أنه قد يتحول إلى حالة مُلهِمة لباقي مناطق التسويات، من حيث عودة النشاطات المناهضة لسيطرة النظام السوري، كما أنه يعطي انطباعًا للفاعلين المحليين والدوليين، بأن موسكو غير قادرة على ضبط الوضع الميداني في سورية.

3- أسباب سياسية: من الواضح أن روسيا عادت للتماهي مع الخطوات الإيرانية في الجنوب السوري، فلم تعد تمانع توسُّع الميليشيات المدعومة إيرانيًا من التحرك في درعا، حيث عززت الفرقة الرابعة من مواقعها خلال شهر تموز/ يوليو من العام الحالي[5].

وفي الخامس والعشرين من تموز/ يوليو 2021 أجرى وفد أمني روسي لقاءً مع وفد إيراني في مبنى فرع المخابرات الجوية بمحافظة درعا، وكان محور الاجتماع الأساسي تسهيل عودة العائلات المنتمية للمذهب الشيعي إلى مناطقهم في "بصرى الشام" شرق المحافظة بضمانة روسية، وطالب الوفد الإيراني خلال اللقاء بأن يتم إخراج مقاتلي التسويات الرافضين لعودة العائلات الشيعية من المناطق التي يسيطرون عليها[6].

ومن المحتمل أن روسيا تريد إعطاء بعض المكاسب لإيران في الجنوب السوري من أجل الحصول على مقابل في ملفات أخرى، كقبول مساهمة روسيا في صياغة الاتفاق النووي المرتقب بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران، وعلى الأرجح فإن هامش تحرُّك روسيا في ملف الجنوب السوري ازداد بعد رحيل حكومة "نتنياهو"، التي ارتبطت مع روسيا بتفاهُمات حول المنطقة.

(4) انطلاق مظاهرة حاشدة للأهالي أمام ساحة المسجد العمري في درعا رفضًا للانتخابات، "المرصد السوري"، 25 أيار/ مايو 2021، https://bit.ly/3i3z69C .

(5) استمرار استقدام التعزيزات من الفرقة الرابعة إلى درعا، "تجمع أحرار حوران"، 25 تموز/ يوليو 2021، https://bit.ly/373DOhA .

(6) معلومات خاصة حصل عليها "مركز جسور للدراسات"، تاريخ الحصول على المعلومات 25 تموز/ يوليو 2021.

وقد ازدادت المؤشرات التي تدل مؤخرًا على توجُّه روسي جديد للتعاطي مع التحركات الإيرانية في سورية، ورغبتها في ضبط الهجمات الإسرائيلية على الأراضي السورية[7].

يضاف إلى هذا أن الأردن الذي شكل طيلة السنوات الماضية عمقًا للمعارضة السورية في محافظة درعا يتجه إلى تغيير موقفه من الصراع الدائر في سورية، إذ أعاد فتح المعابر بينه وبين النظام السوري لتسهيل الحصول على المواد الغذائية القادمة من جهة جنوب سورية، وللاستفادة أيضًا من رسوم عبور البضائع باتجاه دول الخليج.

وتشير التقارير التي تحدثت عن مبادرة عرضها الملك الأردني على الرئيس الأمريكي "جو بايدن" إلى حجم التغيرات التي حصلت في موقف عمان، حيث أفادت تلك التقارير بأن المبادرة تتضمن تخفيف العقوبات عن النظام السوري وتسهيل عودته للجامعة العربية[8].

ثانيًا: المسار التفاوضي على إنهاء الحصار

شهد يوم الثالث والعشرين من تموز/ يوليو عقد جولة تفاوضية بين وفد من النظام السوري واللجنة المركزية المسؤولة عن التفاوض باسم أحياء مدينة درعا، حيث طرح وفد النظام مَطالبه لإنهاء الحصار على الأحياء مقابل تسليم عشرات المطلوبين، والسماح لقوات النظام بإقامة نقاط عسكرية داخل "درعا البلد".

ولم يتوصل الطرفان إلى اتفاق بسبب الخلاف على نقاط عديدة، فقد وافقت اللجنة المركزية على إنشاء نقطتين فقط واشترطت أن ينتشر فيها عناصر محلية ممن أجروا اتفاقات تسوية، كما رفضت اللجنة تسليم المطلوبين وطالبت فقط بتسوية أوضاعهم.

ويصر النظام السوري على نشر ثلاث نقاط عسكرية على الأقل، وأن تشارك عناصره في إنشائها إلى جانب المقاتلين المحليين، مع وضع ضوابط لحمل السلاح الفردي والخفيف[9].

---

(7) تصريحات وزارة الدفاع الروسية حول التصدي للصواريخ الإسرائيلية فوق الأراضي السورية، "روسيا اليوم"، 22 تموز/ يوليو 2021، https://bit.ly/3eTlc7Z .

(8) ملك الأردن يعرض على الأمريكيين خريطة طريق لسورية، صحيفة المدن نقلاً عن صحيفة واشنطن بوست، 23 تموز/ يوليو 2021، https://bit.ly/3zFROKn .

(9) معلومات خاصة حصل عليها "مركز جسور للدراسات"، تاريخ الحصول على المعلومات 25 تموز/ يوليو 2021.

وفي السادس والعشرين من تموز/ يوليو نفى النظام السوري على لسان مسؤول في حزب البعث الحاكم التوصل إلى اتفاق مع اللجنة المركزية الخاصة بمدينة درعا، وتحدث عن ضرورة حصر السلاح بيد قُوَى الأمن الداخلي[10].

وتوصل الطرفان في السابع والعشرين من تموز/ يوليو إلى تفاهُم مبدئي ينصّ على تسوية أوضاع العشرات من المطلوبين، والسماح للنظام السوري بتأسيس نقاط عسكرية داخل أحياء مدينة درعا، بالإضافة إلى وَقْف الخطاب الإعلامي بالتصعيد ضد النظام السوري.

ثالثًا: السيناريوهات المحتملة

تشير المعطيات الراهنة إلى أن موسكو راغبة في تعديل الواقع الذي أفرزه اتفاق التسوية عام 2018 إلى وضع جديد مناسب لها، ويتماشى مع اعتباراتها الأمنية والسياسية، ويمكن القول: إن مدينة درعا تتجه إلى واحد من السيناريوهين التاليين:

1-فرض تسويات جديدة في درعا

من الممكن أن يتم إنهاء الحصار بالكامل ووقف التصعيد الميداني في حال التوصل إلى تسويات جديدة في محافظة درعا مختلفة عما تم الاتفاق عليه عام 2018.

وستحرص روسيا والنظام السوري على أن تضمن التسوية الجديدة تعزيز الانتشار العسكري والأمني في المناطق الخارجة بشكل فعلي عن السيطرة، بالإضافة إلى ضبط انتشار السلاح وحصره بيد القوى الأمنية التي ستتولى مهمة الشرطة المدنية.

ومن الممكن أن تنص التسوية الجديدة على إتاحة الفرصة للمقاتلين المحليين للانخراط في جهاز شرطة يتولى ضبط الأمن، لكن سيتم تطعيمه بعناصر تدين للنظام السوري بالولاء المطلق.

ومن خلال هذا السيناريو سيضمن النظام السوري إنهاء حالة التمرد ضده في المنطقة، ويحصل على بيئة خصبة لممارسة عمله الأمني الذي سيتضمن غالبًا تصفية أي عناصر يشعر النظام بأنها تشكل خطرًا عليه، ويقوم بكتم الأصوات الإعلامية التي تجاهر برفض سلطته، وصولاً إلى حالة تطويع المنطقة بالكامل.

(10) أمين فرع حزب البعث في محافظة درعا التابع للنظام السوري ينفي التوصل إلى اتفاق، صحيفة "الوطن" (دمشق)، 27 تموز/ يوليو 2021، https://bit.ly/3rCa58A .

ويعتبر هذا المسار هو الأرجح بسبب غياب قدرة المقاتلين المحليين على مجابهة حملة عسكرية واسعة، وفي ظل قبول بعض الفعاليات الشعبية لفكرة التسوية تجنبًا للعمليات العسكرية، في حين يبدو أن روسيا غير مندفعة بشكل كبير للعملية العسكرية؛ وإنما تسعى لاستخدام الحصار من أجل تسريع المسار التفاوضي، وقد يكون السبب في ذلك أنها لا تريد إنهاء حالة التوازُن الذي يشكله وجود المقاتلين المحليين مع الميليشيات الإيرانية، وإنما ترغب في تأطير هذا التواجد وجعله منضبطًا بشكل أكبر.

ولا يعني التوصل إلى تسوية عدم اندلاع اشتباكات ومُواجهات مع المقاتلين المحليين، خاصة مع الشريحة التي قد ترفض أن تنصاع للمطالب الروسية، لكن هذه المُواجَهات لو حصلت فستكون محدودةً.

وفي حال حسم النظام السوري ملف "درعا البلد" فإنه سينتقل لتطبيق السيناريو ذاته في قرى وبلدات ريف درعا الغربي، التي ينتشر فيها مقاتلون محليون، ويمسكون بزمام الأمور فيها ويعيقون التحركات الأمنية للنظام السوري والميليشيات الإيرانية، مثل بلدات: "طفس – اليادودة"، بحيث تدين كل محافظة درعا لسيطرة النظام السوري الفعلية لا الشكلية.

2-الخيار العسكري

من المحتمل أن يلجأ النظام السوري إلى الخيار العسكري سواء ضد أحياء درعا، أو القرى والبلدات الأخرى التي ينتشر فيها المقاتلون المحليون، وذلك في حال تعثرت عملية الوصول إلى تسوية جديدة ورفض المقاتلون المحليون انتشار قوات النظام السوري دون مواجهات.

وقد استقدم النظام السوري منذ الخامس والعشرين من تموز/ يوليو تعزيزات عسكرية تتبع الفرقة الرابعة والفرقة "25" المرتبطة بروسيا، وقام بنشرها في مناطق: حي "سجنة" وفي "تل الخضر" وضاحية درعا غرب المحافظة، بالإضافة إلى منطقة "بصر الحرير" شرق درعا.

وفي حال اتجهت روسيا والنظام السوري للخيار العسكري، فمن غير المتوقَّع أن تكون المُواجَهات طويلة المدى بسبب عدم توفُّر مقومات المواجهة لدى المقاتلين المحليين، وغياب المسانَدة الإقليمية التي توفِّر الدعم اللوجستي، لكن سيتبعه حملات اعتقالات وتصفيات ضد المناهضين للنظام السوري، مع غياب أي هوامش للمقاتلين المحليين حتى على صعيد المُشارَكة في الجهاز الأمني.

خُلاصة

سواء استطاعت قوات النظام السوري ومن خلفها روسيا فرض تسوية جديدة عن طريق التلويح بالقوة، أو تم المزج بين القوة العسكرية والمسار التفاوضي للوصول إلى تسوية جديدة، يبدو أن نموذج الجنوب السوري الذي تفرد بخصائص مختلفة عن باقي مناطق سورية التي دخلت في التسويات مع روسيا، وحافظ على هامش مناورة لصالح مقاتلي المعارضة، في طريقه إلى الزوال، وأن الفترة المقبلة ستشهد تمكُّنَ النظامِ السوري والميليشيات الإيرانية من بسط سيطرتهم على محافظة درعا.

ومن الواضح أن روسيا تؤيد بشكل كامل إنهاء نموذج جنوب سورية وما أفرزه من هوامش لصالح المعارضة، مستفيدة من تبدُّل الظروف السياسية، وعلى الأخص رحيل الحكومة الإسرائيلية التي ارتبطت موسكو معها بتفاهمات، جعلتها حريصة على حالة من التوازن بين النفوذ الإيراني وعدم إغضاب تل أبيب، بالإضافة إلى عامل دولي آخر صبَّ في مصلحة موسكو، وهو فقدان المعارضة السورية للعمق الأردني في ظل تبدُّل موقف عمّان التدريجي، والذي بدأ منذ عام 2018.

ومن النتائج المرتقَبة لتقويض سيطرة المقاتلين المحليين في محافظة درعا تمدُّد الميليشيات الإيرانية بشكل أكبر، وحصولها على حرية بالتحرك وتجنيد المقاتلين لصالحها، مما يعطي إيران ورقة مهمة للضغط، ومن غير المُستبعَد أن تكون هذه النتيجة مقصودة بذاتها من قِبل الجانب الروسي في إطار تفاهُم جديد مع طهران.

مول اوف اسطنبول ـ مكاتب بلازا
طابق/2 ـ مكتب 3# ـ باشاك شهير
اسطنبول - تركيا

+ 90 555 056 06 66

/jusoorstudies
/jusoorstudies
/jusoorstudies

info@jusoor.co
www.jusoor.co